

باريز بعد الغروب

١٠

إن فاحرت باريز بمعارضها التي أقامتها في أوقات مختلفة لتلفت إليها الأنظار وتستفيد
الفخار والنصار فإن لها كل ليلة معارض لا تختلف عن السابقة إلا في كون البقعة التي
تقوم عليها هذه أوسع مجالاً وأكثر جمالاً.

يصرف الباريزيون أو معظمهم فئارهم في الاستعداد لنيلهم وكثيرون لا يعملون إلا في
الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم وادخار أحسن ما عندهم لما بعد الشفق فهم لا
يجعون الليل لباساً والنهار معاشاً كما هي عادة معظم الأمم بل أن الحركة عندهم تبدأ
قبل الظهر بطيئة ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس وتطنع بلدتها شمس وأقنار.

ترى المدينة في النهار عابسة مظلمة عنى كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة عنى
جانبيها بالأشجار غالباً وطرقها وأزقتها وساحاتها العامة وفي هذه الأماكن تشهد مجالي
الحسن والإحسان وما تفتت في إبداعه العوامل وتلطف في روايته الأفكار والأنامل.

عنى تلك الأرصفة تناجي النفس رب النجوى قائنة النهم هل خلقت باريز من معدن
اللطف والظرف لتكون مثلاً من جنة أرضية فخصصت أهلها بالاستمتاع بنعمة الجمال
حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته عنى الباريزيات وشطر وزعته عنى سائر بنات
حواء.

إن امتاز الفرنسي بالإبداع في الصناعات فقد امتازوا أيضاً بنصرة الوجوه. وإلى باريز
تحمل هذه الأمة ولا سيما في فصل الشتاء أفضل ما عندها من مجالي الكمال والجمال أيام

تكون أم هذه القرى مقصد السائحين والتجّرين والطالين والعالمين والسياسين والخطّابين
وتغص دواوينها وإداراتها وتنتظم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية.

ويزيد الوجود بمحطة في باريز تفتن القوم في الأزياء وتغاليهم في التبرج والزينة تغالياً مهماً
تقدم عند غيرهم لا يزالون مصدره ومورده وأساتذته وسدنته. ومظاهر الأزياء تتجلى في
باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات وفي المركبات
والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الأرض وتحتها وفي دور
التشيل ومسارح النهو والطرب وحال الفرج والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق
ويزيدها فتنه للناظرين ما اعتاده الباريزيات إلا من عصم ربي من إبداء زينتهن لغير المخارم
أكثر من إبدائها لبعوطن وذوي قرباهن ورنين أصواتهن في الكلام رنيناً تحسبه من مزامير
داود وتستطيعه أكثر من تغريد العنديل وهناك الفتنة بعينها والفتنة أشد من القتل ونعوذ
به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين.

ولعل هذه الجمالي في الحرية المفرطة حنت الكثير من الغرباء على نزول باريز ليشهدوا فيها
مآلاً يشهدونه في غيرها وتربح منهم النيرات بالملايين والكرات عدلاً بما قاله أحد ملوك
بروسيا وقد قيل له ليس من اللائق أن تضرب ضريبة على محال الاطيشان في الشوارع
فقال الغاية تبرر الوسيلة فما دامت الغاية الكسب فلا بأس من الاحتيال لئله ومن أجل
هذا تظهر باريز بعد الغروب أقصى الفضيلة وأقصى الرذيلة والناس معها وما يختارون.

بعد الغروب تعمر في باريز أندية الخطابة والخاصرة والعلم وتلقى فيها من الفوائد ما يبلغ
الأذهان عفواً وصفواً ويفض معين البيان ويبدو حذق يد الإنسان ويسعى العالم إلى تعميم

الجاهل في ساعة ما تعب في إحضاره الأيام والأعوام فائدة الخطب والمحاضرات معروضة. ودروس الفضائل عامة مورودة.

بعد الغروب يعمل معظم الكتّاب ككتّابهم والشاعرين أشعارهم والمؤلفين مؤلفاتهم والمخترعين اختراعاتهم والصانعين كأن الأفكار لا تنطق من عقالها والأيدي لا تحقّق أعمالها إلا عندما ترقّد عيون البشر أو كأن الزهرة ربة الجمال لا تحب أن تملي على من هم أحوج الناس إلى طنعتها إلا من الليل ككوكب الزهرة لا يبدو في مطلع الأفلاك إلا مع الدجى. ولذا يحرص أهل باريز أن يجعلوها بعد غروب الشمس مجمع الأنس وريحانة النفس.

وكان الباريزيين وهم العارفون بتقسيم الأعمال عزّ عليهم أن تمضي ساعة في بلدهم ينقطع فيها العاملون عن أعمالهم فخصوا النهار ببعض الصناعات والتجار والعجلة والعمالات والليل بالمفكرين والمفكرات والمؤنسين والمؤنسات والمغنين والمغنيات والممثلين والممثلات. حتى لا تنقطع حركة ولا يقف دولا ب عمل وكان بذلك الحظ الأوفر للغرباء فلا يدخل على الغريب مثل من تغير المشاهد ولا يفتأ من الفجر إلى الفجر إن أحب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتزوّد.

يقول الباريزيون أن بلدهم مبارك على الغريب أكثر منه عليهم وأهم مضطرون أن يواصلوا السير بالسرى ويكدحون الليل والنهار ولكن هذا قول من منك شيئاً فزهد فيه والروح تترتاح إلى التقلّ أما الشرقي الذي يرى أهل باريز ويغبطهم على أكثر ما دبروه لراحتهم ورفاهيتهم فإنه يعجب لمن يسألكهم زمناً كيف ترضى نفسه أن يختار عن باريز بنداً كما يعجب لأهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة أضعاف أضعاف ما يأسف

غيرهم عليها ومن قال بأن دواعي الراحة تطيل حبال الآجال يستعظم على أهل باريز لم
لم يعثروا أكثر من عامة الخلق وعندهم النعيم المقيم والخير العيم.

الرسالة العذراء

في موازين البلاغة وأدوات الكتابة كتب بها أبو اليسر إبراهيم بن محمد بن المدبر

بسم الله الرحمن الرحيم

فتى اله بالحكمة ذهنك، وشرح بها صدرك وأنطق بالحق لسانك، وشرف به بيانك، وصل
إلي كتابك العجيب الذي استفهني فيه بمجموع كنيتك جوامع أسباب البلاغة،
واستكشفتني عن غوامض آداب أدوات الكتابة، سألتني أن أقف بك على وزن عذوبة
النقظ وحلاوته، وحدود فخامة المعنى وجزالته، ورشاقة نظم الكتاب ومشاكلته سرده،
وحسن افتتاحه وختمه، وانتهاء فصوله، واعتدال وصوله وسلامتهما من الزلل، وبعدهما
من الخطل، ومتى يكون الكاتب مستحقاً اسم الكتابة، والبلغ مسئلاً له معاني البلاغة، في
إشارته، واستعارته، وإلى أي أدواته هو أحوج، وبأي آلاته هو أعمل إذا حصص الحق.
ودعي إلى السبق، وفهسته وأنا راسم لك أيديك الله من ذلك ما يجمع أكثر شرائطك،
ويعبر عن جملة سؤالك، وإن طولت في الكتاب وعرضت وأطنبت في الوصف وأسهمت،
ومستقص على نفسي في الجواب على قاصر استقصائك في السؤال، وإن أخل به التيات
الحال، وسكون الحركة، وفتر النشاط، وانتشار الروية، وتقسيم الفكر، واشتراك
القلب، والله المستعان.

اعلم أيديك الله إن أدوات ديوان جمع الحاسن وآلات المكارم طاعة منقادة لهذه الصناعة
التي خطبتها وتالية تابعة لها وغير خارجة إلى حجد أحكامها ولا دافعة لما يلزمها الإقرار به